دار الحياة
www.daralhayat.com

القدس و«فوبيا» التاريخ

>

>يوسف ضمرة الحياة - 09/04/05//

ليس ثمة فارق عند العدو الصهيوني بين أطفال الحجارة، وصواريخ القسام البدائية، وقصائد شعر وقصص وروايات، ما دام الهدف من ذلك كله واحداً، هو تكريس الهوية الفلسطينية، وصونها، ووضعها في السياق العروبي الذي انبنت فيه.

لقد سمحت قوات الاحتلال للشاعر الكبير محمود درويش بإلقاء قصائده في حيفا، ولكنها لم تحتمل عنواناً صارخاً يقول «القدس عاصمة الثقافة العربية». فحيفا في القاموس الصهيوني والعربي الرسمي تأسرلت، ولم يعد ثمة خوف من قصائد شعر عربية في قاعاتها، طالما كانت الهوية الجديدة محصنة وغير قابلة للحوار أو التساؤل. ولكن القدس شيء آخر. فليس معقولاً بالنسبة للعدو أن يقوم بهدم منازل المقدسيين بالمئات، وتشريد الآلاف من ساكنيها، والحديث عنها بوصفها «أورشليم» الإسرائيلية، ثم يأتي الفلسطينيون والعرب لكي يؤكدوا ثقافياً أن لا مساومة على عروبة القدس، أيا كان الهدم والتجريف والتهجير، وأيا كان ارتفاع السور العازل، الذي لم يتعظ من سور برلين.

في الحادي والعشرين من آذار – يا له من يوم! – منعت قوات الاحتلال الصهيوني الفلسطينيين من الغناء والشعر.

كان بعض العرب يتفهمون الهجوم الوحشي على غزة، لئلا نسمح للصواريخ البدائية بإعاقة مسيرة السلام المزعوم، الذي سيؤدي إلى قيام دولة فلسطينية، يتشدق العرب الرسميون يومياً بأن عاصمتها هي القدس الشريف. ولكننا لا نعرف بماذا يمكن تبرير قمع احتفالية القدس عاصمة الثقافة العربية، ومنع النشاطات الاحتفالية كالرقص والغناء والشعر! وربما لا نجد إجابة أكثر وضوحاً من ما يصرح به قادة هذا العدو من سعي حثيث إلى «تنقية» إسرائيل، كي تصبح دولة عبرية خالصة.

هذا كله مفهوم لا يستحق الهجاء. بل يمكن القول إن الهجاء لم يعد صالحاً للاستخدام العربي، بعد أن تبين أنه هجاء مقنّع، ينطوي في جوهره على تبرئة الذات من عذاب الأزقة العتيقة، وصوت فيروز الذي يظل يذكّر العرب بتلك الأزقة.

هو غوبلز الذي قال: كلما سمعت كلمة ثقافة، وضعت يدي على مسدسي. وها هي الآليات العسكرية الصهيونية تتخذ لها مواقع قتالية في مواجهة الأغنية والقصيدة، في يوم افتتاح القدس عاصمة الثقافة العربية.

لم يريدوا للناصرة أن تتغنى بالقدس تاريخاً وحضارة وثقافة وهوية، هم الباحثون عن التاريخ المقدس، الذين يفتشون عنه في أزقة القدس العتيقة، وتحت أسوارها، طالما وجدوا أنفسهم بين أمم وحضارات لها الكثير من التواريخ المقدسة. لقد فعلوا ذلك في السبي الشهير، حين وجدوا أنفسهم بين أقوام تمتلك إرثاً مقدساً يطاول الوجود والقيم والتاريخ البشري كله، فاخترعوا ولفقوا ماضياً ساذجاً يتغنى بمقدرة يهوه على القتل وحبه رائحة الشواء والدم.

لم أقرأ ولم أسمع عبر التاريخ، أن كياناً يسمي نفسه دولة حرة، يصاب بكل هذه الفوبيا من القصيدة والأغنية والدبكة الشعبية والثوب المطرز. ولم يحدث أن وُضعت المجنزرات على أهبة السّعار تحسباً لأغنية أو قصيدة. لكنهم يفعلون، وهم يدركون أن المعركة هذه المرة لا تنفع فيها قنابل فوسفورية أو عنقودية أو أسلحة الدمار الشامل. فهذه ثقافة. إنها التاريخ واللغة التي صاغت العلاقات الإنسانية في خلال رحلة طويلة من مداعبة الأرض والشجر. وهم يدركون أن الأغنية ذاكرة، والقصيدة صرخة جارحة في العمق، لأنها تستخدم اللغة، لثغة أول طفل عربي، ووصية آخر شهيد.

هم يفكرون كيف يسحبون القدس من التاريخ العربي، فقط لأنهم في حاجة إلى هكتار ينسجون عليه «خراريف» مقدسة.

واحتفال الناصرة تحديداً بالقدس عاصمة الثقافة العربية، يعني توكيد يسوع المسيح عروبة القدس. وهم لا يريدون من يذكرهم بيسوع الناصري، لأنهم لا يعرفون كيف يغسلون ماضيهم من تأنيبه كهنتهم، وهو لم يتجاوز الثانية عشرة.

ولهذا اقتحموا مدرسة المطران التي كانت تحتفل بعيد الأم، لأنهم لم يحتملوا الربط بين الأم والقدس عاصمة الثقافة العربية.

هم يطوقون المناسبة، ويحاولون حصارها واعتقالها، وربما دكها بالقنابل الغبية. والسبب عندهم أعمق من أغنية شعبية أو أهزوجة. فالقدس التي جعلوها عاصمة كيانهم العبري الصافي، تتوج اليوم بإجماع عربي عاصمة الثقافة العربية. أي رمز الهوية العربية. أي أن التحدي الذي يواجهونه ليس مجموعة أنشطة ثقافية عادية. إنها تكريس عروبة القدس، العاصمة المقترَحَة لكيان عابر، يدركون هم قبل غيرهم حقيقته والخلل البنيوي الذي أدى إلى نشوئه.

أهي مصادفة أن تبدأ هذه الاحتفالية في عيد الأم، وعيد الربيع، وعيد النيروز، وشمّ النسيم، ورأس السنة منذ فجر التاريخ؟ ربما، ولكنها مصادفة متواطئة مع الحق والتاريخ والقيم الإنسانية العالية.

لن نطالب أحداً بالهجاء، ولا بالتنديد أو الشجب في هذه المعركة، لأن الهجاء العربي الرسمي مقنّع يخفي استخفافاً بما تمثله القدس أو فكرة العلاقة بين الإنسان والتاريخ والجغرافيا. ولكن، إذا كان ثمة ما يمكن اقتراحه هنا، فهو أن يُجمع العرب مرة واحدة، على أن تكون القدس عاصمة دائمة للثقافة العربية.. أي أن تكون عروبة القدس خياراً عربياً استراتيجياً، إلى أن يصلح التاريخ أخطاءه المتعددة، بمساعدة اليد الإنسانية. وهي مساعدة لن تتم إلا باللغة، أقدم الأسلحة وأقوى الروابط عبر التاريخ، وأمتن المنازل التي يمكن المرء أن يقيم فيها من دون خوف، حتى لو ظلت القدس محتلة عسكرياً ألف سنة.

علينا أن ندرك جيداً أن من يعاني عقدة ماضٍ معقد ومرتبك وهش، يعاني بالضرورة خوفاً مزمناً من المستقبل، وقلقاً دائماً على المصير. بينما القدس ليست كذلك، فالسروة الممشوقة بهذا البهاء كله، تتمايل في خيلاء مع الريح، لأنها واثقة من عمق جذورها.

©2006 Media Communications Group مجموعة الاتصالات الإعلامية